آراء طه حسين وتلاميذه حول النثر الفني في العصر الجاهلي

د. السنوسي أبوبكر أحمد

جامعة سرت – كلية التربية

المستخلص:

تناول هذا البحث أهمية ومكانة الشعر والنثر في العصر الجاهلي. فالعلاقة بين الشعر والنثر علاقة مستمرة، تمتد عبر الزمان والمكان، وكأنها علاقة مد وجزر. وخلال هذه الفترة، احتل الشعر مكانة مرموقة ولعب دورًا مهمًا في المجتمع، وكان تأثيره غالبًا ينبعث من الحاكم. وفي المقابل، كان للنثر الفني مكانته الخاصة. وقد تجلى هذا التعبير الفني من خلال أشكاله المختلفة مثل: الخطب والمناظرات وقصائد سجع الكهان والأمثال وغيرها الكثير. ويمكن تعريف الشعر بأنه خطاب موزون ومقفى، أو بعبارة أخرى، هو الأسلوب الذي يستخدمه الشاعر لتصوير عواطفه ومشاعره، معتمدًا على الوزن والموسيقى. وعلى العكس من ذلك، فإن النثر هو الوسيلة التي يعبر بها الكتاب عن أفكارهم العميقة، معتمدين في هذه العملية على العقلانية والمنطق. يعتبر الشعر والنثر توأما الأدب، ومن خلال هذه الأشكال تتقدم المعرفة والثقافة. وسيكشف البحث عن مكانة النثر في العصر الجاهلي.

الكلمات المفتتاحية: النثر الفني, الشعر, العصر الجاهلي, طه حسين.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا وشفيعنا يوم الدين.

وبعد ...

إن انتشار الشعر في العصر الجاهلي يعود إلى عاملين أساسيين.

أولاً: أنه انتشر على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها مما أكسبه أهمية وعلوا.

ثانياً: أنه قائم على الخيال والعاطفة، وكلاهما موجود في هذه البيئة الجاهلية؛فالخيال واسع والعاطفة جياشة, وقد ترسخت هاتان الخاصيتان في العديد من النصوص الشعرية الجاهلية.

وعلى العكس من ذلك، فإن أساس النثر هو التفكير والمنطق، وكلاهما سابق للخيال. وبالتالي فإن استخدام الخيال في النثر يتطلب بذل الجهد المعرفي والعقلاني. وعند النظر في مفهوم الأدب، من المهم أن ندرك العلاقة التكافلية بين الشعر والنثر، حيث أن كلاهما مكونان لا يتجزأن من التعبير الأدبي.

ولقد تجلى أثر النثر الجاهلي في انتشار خصائصه من خلال الرواة والحافظين الذين ارتبطوا به، مما سهل انتشاره بين القبائل المختلفة وربما خارج الحدود الوطنية للقبيلة. وقد تزامن ظهور عصر التوثيق مع التركيز الأولي على الشعر، نظراً لميل العرب الجاهلين إلى نظم الشعر وإهمال النثر، وذلك لسهولة حفظه وإلقائه. ولكن هذا لا يقلل من وجود النثر الفني، الذي كان سائداً بين أهل الجاهلية في صورة الخطب والأمثال وغيرها من الأشكال النثر. ومن السمات المميزة للنثر الشعري موسيقاه، التي تتجلى في التوليد التلقائي للجمل المتوازنة والمقفاة. فضلاً عن ذلك فإن الجمل المختصرة والبليغة من سمات هذا النوع، التي تتميز بقوة كلماتها. ويمكن العثور على أمثلة للنثر في الخطب والأمثال وسجع الكهان وغيرها. وقد اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التاريخي لمعرفة حقيقة النثر في هذا العصر، وسيكشف البحث عن أهمية النثر في هذه المرحلة الجاهلية.

إن قراءة كتابات المؤرخين العرب القدماء والمعاصرين قد تشير إلى أن الشعر كان له تأثير كبير في حياة العرب القدماء، سواء قبل ظهور الإسلام أو في الفترة التي تلته. والواقع أن الشعر أصبح منتشراً على نطاق واسع في المجال الأدبي إلى الحد الذي

لم يترك فيه إلا مساحة محدودة للنثر الفني. ويؤكد هذا الادعاء أحد الشخصيات البارزة في النهضة الأدبية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر، والذي يشهد على هيمنة الشعر على النثر على نحو مستدام، حتى في أعقاب ظهور الإسلام. "ويقول العلامة حسين المرصفي: ""كان الشعر سيداً، وكان سلطانه على من سار على نهجه، وظل ذلك إلى قيام العصر العباسي" (المرصفي، 1991: ص 42)

ويرى المتتبع للكتابات المبكرة لنقادنا المعاصرين أن ""التاريخ الأدبي"" للعرب القدماء يخلو على ما يبدو من أدلة موثقة على النثر الفني، كما يؤكد مؤرخونا المعتمدون أن ما حفظ من نثرنا الجاهلي لا يتجاوز فقرات من نثر الكهنة، وبعض الخطب، والوصايا، والقصص التي يمكن الشك في صحتها بسهولة. (ضيف، 1937: ص 4-6)

وقد يؤكد البحث بكل وضوح أن نثر العرب في العصر الجاهلي قد تعرض لانتقادات كبيرة وقاسية في كثير من الأحيان. بل إن بعض العلماء المعاصرين، ومنهم الدكتور طه حسين والدكتور شوقي ضيف، قد ذهبوا إلى حد إنكار وجود أي نثر فني أنتجه العرب قبل ظهور الإسلام. ويزعمون أن هذا النثر الفني ليس من إبداع العرب الأصليين، بل إنه نسب إليهم خطأً في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

ويشكك في صحة النثر الجاهلي التأكيد على أن النصوص لم تنتقل إلينا بطريقة علمية صارمة أو قاطعة أو سائدة (حسين، 1933: ص 352). ويؤكد الدكتور شوقي ضيف على هذه النقطة بقوله: "إننا لا نملك نصوصاً موثقة تسمح لنا بإجراء تقييمات دقيقة لبلاغتهم وحرفيتهم" (ضيف، 1992: ص 3). إن من أشد الانتقادات الموجهة إلى ظاهرة النثر القديم هو وصف الحياة الفكرية عند العرب قبل الإسلام بأنها تفتقر إلى القوة؛ وهذا الرأي يثير الشكوك حول صحة النثر القديم، خاصة وأن اللغة المستخدمة في هذا النوع كانت لغة "العقل"، والتي كانت تعتبر جانباً ضعيفاً من جوانب الحياة العربية خلال تلك الفترة. وعلى العكس من ذلك، شهد الشعر فترة من النمو والتطور الكبير، مستفيداً من مجال العاطفة والخيال، وهو وسيط عالمي مشترك بين جميع الثقافات، بغض النظر عن مستوى تعقيدها (مبارك، 1934: ص 38).

إن الآراء المذكورة أعلاه، والتي عرضناها في الفقرات السابقة، توضح التفكير النقدي الذي استبانه الدكتور طه حسين ومجموعة من طلابه في دراستهم لظاهرة النثر القديم. وهذا المنظور يتفق مع وجهات النظر التي عبر عنها بعض المستشرقين، كما طرحها الدكتور زكي مبارك. ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هذا التوافق يمتد إلى آراء تنحرف كثيراً عن الموضوعية فيما يتصل بالأدب العربي. فحينما تقتصر دراسة الدكتور بلاشير

للأدب الجاهلي على الشعر، فمن المهم أن نأخذ في الاعتبار ما يلي: "إن النصوص التي بين أيدينا ـ باستثناء القرآن الكريم ـ لا تحتوي على أي أثر نثري يعود إلى العصر الجاهلي" (بلاشير، 1984: ص 197)، ويشعر الدكتور شوقي ضيف بالرعب ـ على حد تعبيره ـ من وصف صورة النثر لنصوص الشعر الجاهلي، "لأنها أصح مما يضاف إلى هذا العصر من الخطابة والكهانة من قِبَل الكهان" (ضيف، 1992: ص 7-8). ولابد من التشكيك في المنطق الكامن وراء دراسة جنس أدبي في نطاق جنس أدبي آخر يختلف عنه تمام الاختلاف في طبيعته وخصائصه الفنية والموضوعية. ومن الواضح أن هذه الفرضية قوبلت بمعارضة من قِبَل مدارس فكرية مختلفة، حيث رأت فيها تناقضاً مع مبادئ العقلانية والدليل التجريبي، فضلاً عن السجل التاريخي للعرب المسلمين وتراثهم اللغوي. وزعم هؤلاء المنتقدون أن العرب الذين سبقوا العصر الإسلامي كانوا الورثة الحقيقيين لبلاغة العرب الذين برعوا في الشعر وتجولوا به في كل وادٍ من أودية الأفكار والعواطف. وتتميز صناعة الشعر بقيود صارمة، والقدرة على اجتياز هذه القيود ببراعة هي علامة مميزة للشاعر الماهر. وبالتالي يجب أن يمتلك هؤلاء الشعراء أيضًا القدرة على إنتاج النثر الفني الذي إذا قورن مقارنة بالشعر كان أقل تقييدًا وأقرب إلى مسارات الكلام، وأكثر انسجامًا مع الحياة، ويعمل من خلال صوره المتنوعة كوسيلة لكل لسان فصيح.

ولقد صدقت آراء النقاد في تراثنا التاريخي على ما ذهب إليه بعض المعاصرين من وجود النثر، وإن كان محدوداً في عدده. وفي هذا السياق، يجدر بنا أن نشير إلى وجهة نظر العلامة ابن الأثير، الذي يبين لنا ندرة الأدلة المتعلقة بالنثر الفني بين عامة العرب، فيقول: إن النثر "أشق من الشعر وأصعب فهماً" (ابن الأثير، 1956م: ص 73)، ويؤيد هذه النظرة أيضاً قوله: إن نثر العرب، على الرغم من فصاحتهم، كان مهملاً إلى حد كبير، باستثناء "قُس بن ساعدة"، الذي يُعَد كلامه نموذجاً للبلاغة والبراعة. وعلى النقيض من الاتجاه السابق، ظهر اتجاه جديد بين نقادنا ومؤرخينا يرى أن عناية العرب بالنثر، وإتقانهم لفنونه، لا يقل عن تفوقهم الشعري. إلا أن طبيعة النثر حالت دون حفظه إلى عصور التدوين. يقول صاحب "صبح الأعشى": "وهذا القول يتفق مع مفهوم سابق طرحه "الجاحظ" (الجاحظ، بدون تاريخ: ص 287)، وفي قوله: "كان العرب يهتمون بالخطب والنثر اهتماماً عظيماً، وكان ما تكلم به عرب المدينة من حسن النثر والمقترن أكثر مما تكلموا به من الوزن؛ إلا أنه لم يحفظ عشر النثر ولا ضاع عشر الوزن" (القلقشندي، 2004: ص 21-211). ويؤكد صاحب كتاب العمدة أن هذا الإجماع كان معلوماً بين الناس (ابن رشيق، 1981: ص 20).

وتشير الأدلة التاريخية إلى أن العرب في عصر ما قبل الإسلام كانوا يتميزون ببراعتهم اللغوية وفصاحتهم. وكانوا بارعين في الشعر والشعر، وإن كان الأول هو الذي احتفظ به الناس على أكمل وجه. وذلك لأن الذاكرة تميل إلى الاحتفاظ بالأشكال الشعرية (الجاحظ، بدون تاريخ: ص 287). ويمكن أن يعزى هذا الميل إلى الجودة اللحنية للشعر، وعمق معانيه، والخيال النشط، والعواطف الشديدة المعبر عنها في أبياته، والتي تعمل مجتمعة كسجل شامل لفضائل ورذائل القبائل المختلفة. وبالتالي، احتفظت الذاكرة الثقافية العربية بألفة أكبر مع الشعر مقارنة بالنثر الفني. وعلاوة على ذلك، ساهم انتشار الكتابة المحدود بين العرب بشكل كبير في تراجع النثر (مبارك، 1934: ص 29). وقد اعترف الإسلام بقيمة الدروس المستفادة من تاريخ الأمة العربية والحضارات الأخرى، حيث ضاعت النصوص المقدسة، وخاصة النثر. وردًا على ذلك، تبنى الإسلام التوثيق كحل أساسي لهذه القضية الدائمة. فمنذ بداية الوحي القرآني، كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يهدف إلى ضمان تسجيل النص كتابيًا، واستكمال حفظه. فالقرآن الكريم، الذي يُعَد كلام الله المعجز وذروة البلاغة في التعبير البشري، هو في الأساس نثر، كما لاحظ السيوطي (السيوطي، بدون تاريخ، ص 472). وعلاوة على ذلك، يشرح ابن خلدون هذا التصنيف، فيقول: إنه على الرغم من أن القرآن نثر بالفعل، إلا أنه يتجاوز التصنيفات التقليدية، حيث يوصف بأنه سرد مفصل للآيات يختلف عن المرسل والمُسَجَّل المطلق (ابن خلدون، 1979: ص 1093-1094).

لقد أظهر العرب تقليدًا ثريًا في النثر الفني يمتد على مدى جزء كبير من خطهم الزمني التاريخي. وعلى الرغم من حقيقة أن الأعمال الأدبية من فترة ما قبل الإسلام لم تنجُ جميعها، فإن البقايا الموجودة تعمل كدليل قاطع على براعتهم الأدبية. ولعبت جهود التوثيق التي بدأها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) دورًا حاسمًا في الحفاظ على النثر الأدبي، ومنع اختفائه تمامًا بعد ظهور الإسلام. لقد أدرك العرب أهمية حماية النصوص النثرية، وتسجيل ذكريات الأحداث التي وقعت قبل ظهور هذا الدين العظيم بعناية. شمل هذا التوثيق الأحداث المختلفة خلال العصر النبوي، وتسجيل تاريخ من النثر البليغ الذي يتميز بالوضوح والتمثيل الحي للواقع والبصيرة العميقة في التجربة الإنسانية، كل ذلك مع عرض أسلوب أدبي رائع قبل وبعد ظهور الإسلام.

وقد تعزز الحفاظ على التراث الجاهلي من خلال المساهمات الحضارية للمسلمين الذين هم مسترشدين بالمبادئ الإسلامية، عززوا التعليم والتعلم. وقد أدى هذا التركيز إلى زيادة كبيرة في معرفة القراءة والكتابة داخل المجتمعات الإسلامية. وبدأ التوثيق المنهجي للعلوم والأدب نحو نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي (أمين،

1964: ص:19). وخلال هذه الفترة، تم تسجيل النصوص عن اللغة العربية والتاريخ ووقائع حياة الناس بدقة. وقد شكل هذا التحول تحولاً كبيراً عن العصر السابق، حيث كانت المعرفة تنتقل شفوياً في المقام الأول، حيث كان الأئمة يعتمدون على الذاكرة أو يتلون من ملاحظات غير منظمة. (أمين ، 1964: ص 11 -13).

لقد أعاق ندرة معرفة القراءة والكتابة بين عامة الناس العرب قبل ظهور الإسلام بشكل كبير تطور الأدب النثري. ومع ذلك، خضع هذا الوضع للتحول مع بداية التحول الحضاري الذي كان له تأثير إيجابي على الحياة العربية. ونتيجة لذلك، شهد الأدب النثري نهضة، مع إعادة النظر في النصوص القديمة وظهور أعمال معاصرة من أشكال مختلفة من التعبير، بما في ذلك الخطابة والأمثال والرسائل والتوقيعات. ونتيجة لذلك، بدأ النثر الموروث والمبتكر حديثًا في الظهور في شكله الأصيل، منخرطًا في علاقة تنافسية مع الشعر داخل المشهد الأدبي.

ماذا تبقى لنا من نثر الجاهلية؟

إن القضية التي نناقشهاهنا تمثل واحدة من أعقد القضايا في تاريخ الأدب العربي القديم، بل من أعقد القضايا في هذا المجال ككل. وقد أثار هذه القضية أول مرة خبير الأدب العربي الشهير الدكتور طه حسين، وما زالت آراؤه في هذا الشأن تؤثر في الأبحاث في هذا المجال حتى يومنا هذا. ولا شك أن هذه القضية تعود إلى مجال دراسات المؤرخين لحياة النثر الجاهلي بكل أبعاده التاريخية والعلمية والفنية (نص/وثيقة/جماليات)، الممتدة من العصور القديمة إلى العصر الحديث. ففي هذه الفترة أدرك بعض المعاصرين استحالة دراسة ظاهرة النثر في العصر الجاهلي. ويكشف لنا دراسة ما تبقى من الأدب العربي القديم عن تنوع غني في النثر الأدبي الجاهلي، والذي تجلى في أشكال متنوعة مثل الخطب المتعددة الأغراض، التي تشمل الوصايا والمناظرات والمجادلات والحوارات والرسائل. "القصص" أو "الأمثال" التي يرويها أفراد كانت حياتهم مرتبطة بالعصر الجاهلي، ثم أتيحت لهم الفرصة بعد ذلك لاجتياز العصر الإسلامي، ومشاركة ذاكرتهم الواعية مع جمهور يتألف من أفراد من خلفيات اجتماعية واقتصادية متنوعة.

سعى الرواة الأوائل إلى الحفاظ على التراث الجاهلي من البدو ورواة الأخبار القبلية في مختلف أنحاء شبه الجزيرة. وقد تحقق ذلك من خلال حركة علمية رائعة تمكنت من حفظ وتسجيل ما تبقى من أدب العصر الجاهلي. ومن الواضح من هذه الحركة أن الرواة

لم يقبلوا كل الروايات على ظاهرها، وأنهم استخدموا معايير علمية وجمالية للتمييز بين الروايات الأجنبية الموثوقة والملفقة.

وعلى الرغم من العيوب المحتملة التي ربما شابت عملية جمع المواد الأدبية التي تنتمي إلى العصر الجاهلي، فإن هذه الحركة العلمية نجحت. وكانت بمثابة مشروع ضخم يعد من الإنجازات الحضارية في تلك الفترة. ولم يشهد تاريخ الحضارات تكرار صورة لنموذجها الفريد، ومن الضروري الاعتراف بأهميته وتجنب التقليل من شأنه وضمان عدم محوه من سجلات التاريخ. ومن أجل توفير أساس متين للمناقشة اللاحقة، من الضروري أن نتناول بإيجاز الفكرة التي روج لها الدكتور طه حسين، وهو شخصية تستحق الثناء على مساهماتها في دراسة الأدب الجاهلي، بأن العرب كانوا خالين من النثر الفني. ومع ذلك، فإن هذا الادعاء لا يستند إلى أدلة تاريخية أو عقلية، بل إنه يستند إلى حدس مجرد. وعلى نحو مماثل فإن محاولة بعض مؤرخي الأدب الذين أشرنا إليهم آنفاً، لإثارة الانتباه إلى ندرة وقصور ظاهرة النثر القديم التي سبقت العصر الإسلامي، والتي تندرج ضمن سجلات التراث القديم، هي محاولة مصيرها الفشل. وهي مبنية على مغالطتين: الأولى أنها مبنية على إنكار النص التراثي دون بحث وتدقيق. والثانية أنها تتعارض مع مسلمات العقل التي تقضي بأن من يستطيع "ترتيب" الكلام بطلاقة تامة لابد أن يكون أقدر على الكلام "المنثور".

ولم يكن حديث عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين عن "النثر" في العصر الجاهلي أقل حماسة من مداولاته حول موضوع الشعر الجاهلي. ففي حين يمتد حديثه عن الشعر في كتابه "الأدب الجاهلي" إلى أكثر من ثلاثمائة وأربعين صفحة، فإن مناقشته للنثر تقتصر على تسع صفحات موجزة وحاسمة. وكان من النتائج الأساسية لأبحاث الدكتور طه حسين رفضه للبلاغة الجاهلية، التي أرجعها بشكل قاطع إلى العصر الإسلامي.[18](حسين، 1933: ص: 352).

ولكن هذه النتيجة لا تعني غياب النثر الفني في العالم العربي. والواقع أن هناك أدلة كافية تشير إلى أن العرب كانوا يمتلكون نثراً فنياً على مستوى جدير بالثناء. ومع ذلك فإن هذا النثر الفني لم يبق إلى يومنا هذا في شكل يمكن اعتباره "حاسماً أو محتملاً"[19](حسين، 1933: ص 352). وعلى حد تعبير الدكتور طه حسين فيما يتعلق بنصوص النثر الجاهلي: "ليس لدينا نموذج نثري واحد لهذا العصر" (حسين، 1933: ص 354). هذه المعضلة تواجه علماء الأدب العربي القديم، وهي ندرة النموذج الذي من شأنه أن يوضح بعض خصائص النثر الجاهلي. ومع ذلك لم يكن هذا التحدي مستعصياً على

علماء مثل الدكتور طه حسين، الذي اقترح نهجا بديلاً. زعم الدكتور حسين أن الطريقة الأكثر دقة لدراسة ظاهرة النثر ليست التركيز على النصوص المنسوبة إلى العصر الجاهلي، بل التركيز على النص القرآني نفسه. (حسين، 1933، ص: 353)!

ومن المهم أن نلاحظ أن المشكلة عند الدكتور طه حسين لا تكمن في نقل البلاغة الجاهلية، سواء من حيث صحتها أو سهولة الوصول إليها، ولا تنبع من الطبيعة الإسلامية الحصرية لهذا الفن. (حسين، 1933: ص 354)، بل تكمن في الافتقار الملحوظ إلى الأهمية المعطاة للبلاغة الجاهلية. ومن ثم، فقد كان الدكتور طه حسين رائداً في النهج غير التقليدي لدراسة النثر الجاهلي، حيث أكد أن القرآن الكريم وحده يشكل المرجع الأساسي لتحديد السمات المميزة للنثر الجاهلي. ويؤكد الدكتور طه حسين: "إن من يطمح إلى دراسة تاريخ النثر العربي الصحيح يضطر إلى الرجوع إلى القرآن وحده، وليس إلى النثر الجاهلي... ومن الواضح أن العرب كانت لهم تقاليد في النثر واضحة في القرآن، وكذلك في أحاديث النبي والخلفاء وخطبهم. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن مسألة النثر، كما ذكرنا سابقًا، تختلف عن مسألة الشعر؛ فبينما لدينا نماذج شعرية لعصر ما قبل الإسلام، ليس لدينا نموذج نثري واحد لهذا العصر. (حسين، 1933: ص 330-331). ومن المثير للاهتمام أن نفكر في التأكيد الذي قدمه الدكتور طه حسين بأن "فن الخطابة" إسلامي حصريًا، باستثناء أي مساهمات من عصر ما قبل الإسلام. ويزداد هذا الموقف تعقيدًا بسبب رفضه للطبيعة الأدبية للخطابة الجاهلية، على الرغم من غياب الأدلة الداعمة. ويؤكد: "أما أنا فلا أنكر أن العرب كان لهم خطباء قبل الإسلام، ولكني لا أتردد في القول بأن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا فائدة" (حسين، 1933: ص 331).

ويرى الدكتور طه أن الخطابة من الفنون التي تنبع من نفس متحضرة تتمتع بقدر من التقدم السياسي والاجتماعي، ويرى أن الأمة العربية في العصر الجاهلي لم تكن كذلك. وفي هذا الصدد يؤكد: "إن الخطابة ليست من الفنون الطبيعية التي تنشأ تلقائياً بين الشعوب؛ بل إن الأفراد يقدرونها لأنفسهم، بل هي ظاهرة اجتماعية تميز نوعاً معيناً من الحياة. ويزعمون أن الوسط الاجتماعي للشعوب العربية قبل ظهور الإسلام لم يكن في احتياج إلى الخطابة البليغة. بل إن الخطابة نشأت في السياق الإسلامي، وبادر إليها النبي والخلفاء، وزادت في تنميتها خلال فترة التنافس السياسي والحزبي بين أفراد المجتمع الإسلامي (حسين، 1933، ص: 331-332). وفي هذا السياق أدرك طه حسين غياب ظاهرة النثر في العصر الجاهلي، وبالتالي طرح السؤال الاستفزازي: "هل ضاع العصر الجاهلي حقاً؟" (حسين، 1933: ص 332-333). إن موقف طه حسين هو أن

تاريخ الأدب يمكن دراسته حقاً بثقة وطمأنينة... في القرآن". (حسين، 1933: ص 332-333).

إن القرآن الكريم هو "القاعدة الأولى" التي حددها الدكتور طه كنقطة انطلاق أساسية لتوثيق ظاهرة النثر. أما "القاعدة الثانية"، والتي يطلق عليها غالبًا "القاعدة الذهبية"، فقد اقترحها الدكتور في خطابه، ثم كررها لاحقًا في كتابات طلابه. ثم تبنت هذه القاعدة الأجيال اللاحقة من العلماء. وتفترض القاعدة أن نثر العصر الجاهلي مستوحى بشكل أساسي من النثر الأول المفقود، أو يشبهه إلى حد كبير. وقد عبر الدكتور الموقر طه حسين عن هذا المنظور ببلاغة: "إن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن استخلاصه من نثر العصر الجاهلي هو أنه حاول إلى حد ما محاكاة أسلوب نثر العرب في العصر الجاهلي. ومع ذلك، فقد فشل في الحفاظ على أي من نصوصه" (حسين، 1933: ص 330).

وفي إطار دراسته لظاهرة النثر في العصر الجاهلي، طرح الدكتور طه حسين قاعدتين لا يمكن التمسك بهما. القاعدة الأولى التي تدعو إلى دراسة خصائص النثر الجاهلي على غرار القرآن الكريم، مع الاعتراف بأن القرآن نزل على أساليب البلاغة العربية، لا تتفق مع سياق الأنماط الأدبية المطروحة في ذلك الوقت، بل تعتبر ظاهرة فريدة، أدهشت العرب بأسلوبها الذي لا نظير له. وقد وجد أهل البلاغة أنفسهم في حيرة من أمرهم عندما حاولوا وصف طبيعتها من خلال الاستعانة بنماذج البلاغة العربية التي اعتادوا عليها، فترددوا في نسبتها إلى الشعر أو الكهانة أو السحر أو عالم القصص، وفي النهاية عجزوا عن تقديم تعريف قاطع لها. وهذا المأزق يقع ضمن نطاق الشكل والأسلوب. إن مضامين القرآن الكريم تتجاوز حدود قيم العصر الجاهلي، وتشتمل على أشكال أدبية متنوعة كانت موجودة في تلك الفترة، وتسلط الضوء على حدود هذه الأشكال.

وذلك لأن النموذج القرآني لم يكن نتاجاً بيئياً للثقافة التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت، بل كان وليد حكيم عالم. وتصور القرآن الكريم كنموذج للنثر الجاهلي الذي كان سائداً في العصر الجاهلي يشكل مغالطة كبيرة، لا نستطيع أن نتفق معها مع تأكيد العميد. ومع ذلك، فإن هذا لا ينفي قيمة الاستدلال بالتفاصيل التاريخية والثقافية الدقيقة التي سردها القرآن الكريم، وخاصة فيما يتصل بالعصر الجاهلي والعقلية الجاهلية التي ميزت العصر التاريخي للنثر الجاهلي. إننا لابد أن نستفيد من الإشارات القرآنية إلى جوانب الحياة الجاهلية المختلفة، وتصوير أمراضها التي ترجع

جذورها إلى عادات ومعتقدات أهلها. وهذا أمر بالغ الأهمية لم يهمله العلماء على كافة المستويات، قديماً وحديثاً، بشرط ألا يعتبر القرآن العظيم كتاب تاريخ بالمعنى التقليدي.

القاعدة الثانية تنص على أن النماذج النثرية الموجودة في النصوص الأدبية القديمة هي مشتقات من الأعمال الأصلية، بصرف النظر عما إذا كانت هذه المشتقات نسخاً طبق الأصل، أو قريبة الصلة، أو منقوصة الشكل إلى حد ما. ويوفر هذا الفهم الأساس للعلماء لبدء فحص النصوص المنسوبة إلى فترة ما قبل الإسلام، حيث يسعون إلى إثبات صحة هذه الأعمال وتحليل سماتها الفنية. إلا أن التحدي ينشأ في تحديد المعايير التي تميز بين فترة ما قبل الإسلام والتقليد اللاحق للنص، وخاصة في غياب نص نثري واحد من تلك الفترة ليكون بمثابة معيار.

وفي تناولنا للقضية التي أبرزها الدكتور طه حسين حول غياب نموذج للنثر الجاهلي، يمكننا أن نلجأ إلى وجهات نظر مهمة للمؤرخين العرب المعاصرين وعلماء الأدب العربي، مثل الدكتور الراحل شوقي ضيف. وتشير آراؤه إلى تطور في الفهم، وإن كان يمكن وصفه بأنه تطور متطرف ومرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأفكار الأساسية لمعلمه. يطرح الدكتور ضيف فكرة مفادها أن المنهجية الحصرية لدراسة جوهر النثر الجاهلي هي من خلال تحليل الشعر الجاهلي، الذي يعتبره أكثر رسوخًا من النثر[29] (ضيف، 1992: ص7). ويزعم أيضًا أن الوثائق الموجودة من العصر الجاهلي غير كافية لتمييز خصائص النثر[30] (ضيف، 1992: ص34). وهذا الموقف محير بشكل خاص لأنه يدمج بين الأنواع الأدبية المتباينة في السعي إلى تحديد الخصائص المميزة، مما يعرض موثوقية النهج للخطر.

تهدف الدراسة الحالية إلى استكشاف إمكانية تحديد نموذج للنص النثري قبل الإسلام والذي من شأنه أن يشمل الوثيقة التاريخية والخصائص الفنية السائدة في العصر الجاهلي.

مفهوم النثر الفنـي

ولكي نؤسس لقاعدة متينة لمناقشة «الخطابة» في العصر الجاهلي، فلا بد من تحديد مفهوم "النثر الفني" وتحديد خصائص النموذج الأدبي الذي سوف نتناوله بالتحليل. فمن الممكن أن نقول أولاً إن كلمة "النثر" مصطلح يقصد به تعريف نوع معين من الكلام، وتمييزه عن غيره من أنواع الكلام عند العرب. وإذا كان هذا المصطلح اللغوي موجوداً منذ العصور القديمة، فمن المسلم به أن كل مصطلح فني له أصل "لغوي". وببعض التأمل يمكن معرفة الأسباب التي أدت إلى ارتباط المصطلح دلالياً

بذلك الأصل اللغوي أو التي أدت إلى تفرعه عنه، حتى أصبح مصطلحاً فنياً يحمل دلالات جديدة وفقاً للاستعمال الجديد. يقول القاموس المحيط: ""نَثَرَ الشيءَ يَنْثُرُهُ ويَنْثِرُه نَثْراً ونِثاراً: رَماهُ مُتَفَرِّقاً" (الفيروزآبادي، 1987: ص 616). ويبدو أن معنى هذه المادة اللغوية يدور حول مفهوم "الرمي على نحو منثور"، وبالتالي تطورت الكلمة من معنى "المادية" إلى معنى معنوي، فكانت النتيجة أن كلمة "نثر" تشير إلى الكلام الذي يرسله الإنسان من "فِيهِ"، لأنه يخرج من فمه منثوراً غير مرتب.

أما من حيث المصطلح:

ولقد استقرت صفة "التفريق" أو "اللانظام" في الكلام "النثري"؛ لتمييزه عن الكلام المنطوق على نحو مقيد، شعري، والمتمثل في الجنس الأدبي المقابل للنثر عند العرب، وهو "الشعر". ومع التسليم بأن "النَّظْم «العروضي » يعد من أهم المعايير للتمييز بين الشعر والنثر (مندور، 1977، ص 27)، وهو الموقف الذي تبناه العلامة "ابن خلدون" في مقدمته [33] (ابن خلدون، 1979، ص 1093)؛ فإن الشعر يمنح ذلك الإيقاع الموسيقي المنتظم، الذي يتميز بجمال جاذبيته. ولكن لابد من الإشارة إلى أن هذه الخاصية الإيقاعية تعتبر أصيلة في كل الفنون، وإن اختلفت طريقة ظهورها أو وظيفتها من فن إلى آخر، بحيث "تظهر في كل الفنون على هيئة تكرار لعنصر ثابت، وعلى هيئة تناسب وانسجام وتوافق" (راغب، 2003: ص 108).

ومن هنا يمكن القول إن الإيقاع الظاهري الذي يميز الشعر العربي موجود أيضاً في النثر، وإن كان في شكل مختلف. إلا أن هذا الإيقاع يكاد يكون غير محسوس لمن لم يطلع على الدراسات الأدبية، أما المتذوقون على كل المستويات فيمكنهم أن يشعروا بتدفقه في الكلام. وبالتالي يمكن تمييز النثر الفني عن غيره من أنواع النثر التقريري في أنه يمتلك "عناصره اللغوية والموسيقية الصرفة التي لا يغفل عن ملاحظتها أي كاتب موهوب أو قارئ متذوق" (عبد النور، 1979: ص 277).

ومن هنا، فقد سعت هذه الدراسة إلى تحديد نموذج نثري قبلي مقبول من قبل الدراسة. ويتجه هذا النموذج نحو دراسة النثر «الممتاز» وخصائصه الأدبية، التي تضعه ضمن منظومة الفنون ذات التأثير الجمالي. ويشير هذا المصطلح، كما يعرفه مفهوم "النثر الفني"، إلى الأعمال الفنية التي قد يتسامح معها البعض مؤخرًا، بل ويصفها بأنها "قصيدة النثر"، وذلك لوجود سمات "شعرية"، مثل الإيقاع والخيال والعاطفة، في موضوعاتها وصياغتها. ومن ثم فإن الحجة القائلة بأن الخصائص

الإيقاعية للوزن والقافية في الشعر أو القافية في النثر تمثل العامل الوحيد المميز في تقييم الجودة الأدبية للنص لم تعد تعتبر مقنعة. والواقع أن الجودة الأدبية للنص الأدبي، سواء أكان شعرًا أم نثرًا، تتوقف على قدرته على استحضار المشاعر والعواطف الجمالية، متأثرة بخصائص الشكل الأدبي والصياغة الفنية (مندور، 1977: ص 4).

يحدد الدكتور صلاح رزق السمات المميزة للنثر الفني فيقول: "يتميز النثر الفني باعتماده على العاطفة، وإثارة المشاعر والعواطف، بقصد التأثير على المتلقي وإحداث المتعة أو اللذة الفنية فيه. وهذه العاطفة، أو العاطفة المتأججة في نفس الكاتب، هي التي تضفي على الأسلوب طابعه الفني. وتتجلى هذه الشخصية في العملية الأسلوبية، من خلال تنسيق الأفكار، واختيار الكلمات، وتجميل العبارات والجمل. ولتحقيق ذلك، يستخدم الكتاب أنواعًا مختلفة من التعبير الفني والحرفية الأدبية (رزق، 1985: ص 18).

الخاتمة والنتائج

وفي الختام، لا بد من التأكيد على أهمية هذين الشكلين الفنيين: الشعر والنثر.

ولا بد من التفريق بين الشعر والنثر عبر العصور المختلفة، لتأكيد حقيقة مفادها أن الشعر تأليف وتشكيل، يبذل المؤلف في إنشائه جهداً كبيراً، ويسعى إلى إيجاد الوزن والقافية، وأحياناً الخيال والعاطفة، التي تكمل التأليف الشعري. وعلى العكس من ذلك، فإن تأليف النثر لا يتطلب نفس الدرجة من الجهد أو التعقيد، وبالتالي فإن النقاد المتخصصين في الشعر غالباً ما اعتبروه أكثر إنجازاً وتفوقاً على النثر. وقد بنى هؤلاء النقاد نظرياتهم الأدبية على أسس اعتبروها أساسية، ومنها:

الشعر هو ديوان العرب الذي سجلوا فيه أحداثهم ورحلاتهم وأمجادهم ومفاخرهم وعاداتهم وتقاليدهم.

فضلاً عن ذلك، فإن العامل المميز بين الشعر والنثر هو الانسجام بينهما، والذي يتجلى في الشعر الغنائي.

على العكس من ذلك، فإن النثر خالٍ من أي ارتباط بالغناء أو الموسيقى.

وردًا على ذلك، زعم أنصار النثر أن: النثر، كما زعموا، مناسب لجميع الأغراض والجوانب الحياتية، في حين أن الشعر فن وغناء وتسلية وضجيج.

وقالوا: إن النثر، كما زعموا، يتمتع بوفرة من التطبيقات في المجال السياسي. وزعموا أن السياسيين يحتاجون إليه للتحدث أمام الجمهور والتواصل مع الآخرين. كما زعموا أن النثر هو لغة العلم والدين. وعلى النقيض من القيود المفروضة على الشعراء، الذين يُطلب منهم الوقوف أثناء تلاوة شعرهم، فإن كتاب النثر أحرار في تلاوة نثرهم وهم واقفون أو جالسون، حسبما يقتضي الموقف. ويركز انتباه الجمهور المستغرق على الشاعر، الذي، بحكم بلاغته، يستحوذ على انتباههم الكامل. ومع ذلك، فإن كلا الشكلين من الشعر لا غنى عنه.

المراجع

1- ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: د. مصطفى جواد ود. سعيد جميل، العراق، المجمع العلمي العراقي، 1956م، ص:73.

2- ابن خلدون، المقدمة، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1979م، ص:1093-1094.

3- ابن رشيق، العمدة، في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط5، ج1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، 1981م، ص:20.

4- أمين ، أحمد ، ضحى الإسلام، ط7، ج2، مصر، مكتبة نهضة مصر، 1964م، ص:19.

5- بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ط2، دمشق، دار الفكر 1984م، ص:197.

6- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ج1، القاهرة، دار الفكر ط4، ص:287.

7- حسين ، طه ، في الأدب الجاهلي، ط3، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1933م، ص:352.

8- راغب ، نبيل ، عناصر البلاغة الأدبية، مصر، بتصرف مكتبة الأسرة، 2003، ص:108.

9- رزق ، صلاح ، نثر أبي العلاء، دراسة فنية، دار الثقافة العربية، 1985م، ص:18.

10- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها،، شرحه محمد جاد المولى وآخرون، ط3، مصر، دار التراث،ج2، ص:476.

11- ضيف ، أحمد ، النثر في عصور اللغة، مصر، المطبعة الحديثة، 1937م، ص:4،6. .

12- ضيف ، شوقي ، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 15، 1992م.

13- عبد النور ، جبور ، المعجم الأدبي، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1979م، ص:277.
14- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، 1987م، ص:616، وراجع: ابن منظور، لسان العرب، مادة:نثر، ج6، مصر، دار المعارف، 1979م، ص:4339.
15- القلقشندي ، أبو العباس ، صبح الأعشى، ج1، تقديم أ.د فوزي محمد أمين، بتصرف، مصر، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر (130)، 2004م، ص:210-211.
16- مبارك ، زكي ، النثر الفني في القرن الرابع، ج1، مصر، دار الكتب المصرية، 1934م، ص:53
17- المرصفي ، حسين ، الوسيلة الأدبية، تحقيق د.عبد العزيز الدسوقي، مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1991م، ج1، ص:42.
18- مندور ، محمد ، الأدب وفنونه، مصر، نهضة مصر، 1977م، ص:27.